القرآن كلام العربية الأول

الدكتور :رزيق محمد جامعة الشلف

تاريخ الاستلام: 2018/11/14 تاريخ القبول:2018/11/19

الملخص باللغة الأجنبية

The discourse on el Iadjaze is a great space that has no boundaries, so many researchers have spent their best time elucidating the rhetorical and graphic secrets, the approval of the Quranic Iadjaze and the perfect recognition of this value. , and that the achievements of the Ulama in the Muslim world during all the periods in their efforts to detect the different faces of the Qur'anic Iadjaze are only drops in its wide ocean, the Koran is miraclous, and the Iadjaze of all his verses, and firmly anchored in the sciences of the Koran, and the Oulamas say as the Holy Qur'an said: "It is He who has brought down on you the Book. There are explicit verses: it is the Mother of the Book, and others that are allegorical. Those who have a distortion in their heart are attached to what is allegorical, because they seek discord and are eager for interpretation; but none other than God knows the interpretation of the Book. Those who are rooted in science say, "We have faith in Him, everything comes from our Lord!" But only those who are endowed with intelligence think. "Al Imran verse.

نص المقال:

اقتضت البيئة الأعرابية القرشية التي هي المرجع و المحك لقياس المهارات اللسانية العربية المتميزة أن يختص الخطاب القرآني بتقديم النموذج اللغوي والبلاغي العربيين المغالبين في كثير من التحدي و التجاوز لعجرفة

المنارة للاستشارات

الأعراب ، وادعاءاتهم بالتفوق المنقطع النظير في البلاغة العربية، لذلك فقد ترسّم مسلكان هما: اللسان الأعرابي البليغ من جهة ، والخطاب القرآني المعجز من جهة أخرى ، و قد ترتب عن تلك المنافرة و التحدي بروز سياق لساني وأسلوبي تبلور في مفهوم الإعجاز ، و مغزاه الانتقال من الإنشاء البشري إلى كلام الله المعجز الآخذ بلسان القوم و عاداتهم و تقاليدهم و أساليبهم البلاغية ، والمتجاوز في ذات الوقت لما بلغوه من الإبداع اللغوي .

لقد تركز الاهتمام بموقف التحدي على جانب بلاغة القرآن ، من حيث مدى تحدي أساليبها المعجزة للسان الأعرابي القوي المتعصب لتقاليده الأسلوبية ، و قد ترتب على روح المنافسة و التفوق قيام علم لغوي طارئ هو إعجاز بلاغة القرآن ، و ليس ذلك إلا لكونه يقوم برهانا على تفوق الخطاب القرآني مقابل أسواق البلاغات العربية الطاغية على أدبيات ذلك العصر، و قد توزع ذلك المذهب البلاغي عبر نشاطات لغوية و دلالية تجسدت في مواضيع : الأسلوب و التصور و السرد [1] الفني، و العلمي بالغيبيات ، و تقدير الحسابات الفائقة كفاءة الإنسان .

لقد أتى هذا التوجه خادما لتقوية البرهان على صدق ربانية النبوة بما يجعلها تفوق احتمال الإنسان ، و قد ظل ثبْت تلك المعجزات البيانية و العلمية والمعرفية متمحورا حول بذل الأسباب الدالة على مدى قصور اللسان العربي ، مما أنزله من عِلية السيادة و التفوق في الأسواق اللغوية العربية إلى مستوى العجز والقصور أمام بلاغة القرآن الكريم ، و قد امتد هذا الأثر الفائق ليكون مدرسة لغوية بلاغية طارئة جديدة على المعارف البلاغية العربية ، بكل ما تتمتع به من الفطنة واللياقة و التفوق على البيئة الواقع فيها .

المنارة للاستشارات

الملاحظ إن البيئة الأدبية الأعرابية باعتبارها النموذج الأدبي الأسمى ، ظلت تتمتع بتجانس معرفي ظلت مظاهر البيئة خلاله تمد الحس البلاغي بجملة من الفطن التي هي في نهاية المطاف جزء لا يتجزأ من النشاط البلاغي الذي ازدانت به التوقيعات الأسلوبية و الشعرية الأخرى ، فالقيافة و الكهانة و الفراسة من النشاطات الروحية ظلت تمد الحس البلاغي بجملة من المهارات الدلالية لا تقل شانا عن تلك الفوائد المجتناة من الممارسة الشعرية مثلا ، و قد كانت مهارات الاستدلال عن المعاني و قراءة الأثر و السمات و العلامات القيم الغالبة على هذا النشاط .

تلتقي الفطن البلاغية الروحية التي ذكرناها مجملة في الفراسة و القيافة والكهانة و العيافة مع البلاغة من حيث كونها تستمد نشاطها الدلالي من كفاءات التفرس والاستدلال ، و هي ذاتها الأدوات الناجعة في قراءة الخطاب القرآني ذي الامتياز البلاغي ، و تبعا لذلك فقد ألفينا الجاحظ و هو أمام البلاغيين العرب يؤكد على هذه الخاصية لدى الكلام عن الفطن البلاغية، و قد كان يصف بعض الإعلام بقوة الفراسة و جودتها [2] .

وبناء على ما سلف تداوله من شأن التدافع البلاغي بين لغتين ، لغة القرآن الكريم ولغة شعر الأعراب و أدبيتهم على العموم ، فقد اتفق للبلاغة الجديدة كسب رهان

التفوق على النشاط الأدبي السائد خلال تلك المرحلة الانتقالية من الحياة الأعرابية إلى الحياة العربية الجديدة .

لنا أن نستوثق في موضوع التدافع البلاغي بين لغة الشعر العربي الجاهلي ، و بين بلاغة القرآن الكريم الموثق في كثير من الشواهد القرآنية ، فهو

المنارة للاستشارات

كتاب الله الخالد ، و معجزة الإسلام الكبرى ، و دليل نبوة رسول الله صلى الله عليه و سلم وصدق رسالته ، و هو " كلام الله المنزل على النبي محمد صلى الله عليه و سلم ، المعجز بصورة منه ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته المكتوب في المصحف"[3].

هكذا فان للتواتر والتحفظ في التلاوة المعززة بالكتابة ظلت هذه جميعها تعزز الخطاب القرآني و تقوي جانبه الأدبي ، فالتفاعل اللغوي الذي قوي بين بلاغة القرآن الكريم و بين معجميات الشعراء الفنية أي اختصاصاتهم اللفظية و الأسلوبية ظلت تعزز قرآنية القرآن ، وتجعل من بلاغته مدرسة أدبية ظل ينهل من معينها الشعراء و الخطباء .

لنا أن نستدل بفاعلية التجاذب الأدبي بين التراث الأدبي الأعرابي ، وبين المدرسة الأدبية القرآنية بما ثبت في الروايات الأدبية من احتباس لبيد عن قول الشعر، و قد أوقفه عن ذلك شدة الانبهار الأدبي الذي صادفه في الأساليب القرآنية المغربة الغلابة ، و قد ظل بعد ذلك يعترف بشدة الانكفاء تعجبا بما بهره من قوة البيان و سحر التعبير و عجيب التصوير[4].

لقد تناهضت جملة الدلالات و المعارف النقدية و البلاغية حول موضوع الإعجاز ، سعت جميعها إلى توثيق المرجعيات الثقافية و المعرفية المتصلة بالموضوع ، و الثابت عند علماء المسلمين أن القرآن فصيح بالدرجة التي لا تبارى ، حتى قال أبو بكر الباقلاني:" أما دلالة القرآن فهي عن معجزة تامة ، عمت الثقَلَين ،وبقيت بقاء العصرين ، و لزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد ، و إن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثل وجه دلالته ، فينبغي ذلك عن نظر مجدد في عجز أول العصر عن مثله ، وكذلك قد يغني عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله عن النظر في حال

المنارة للاستشارات

العصر الأول . . . فبان بهذا وبنظائره من أن بناء نبوة صلى الله عليه و سلم على دلالة القرآن و معجزته و صار له من الحكم في دلالته على نفسه و صدقه انه يمكن إن يعلم انه كلام الله تعالى ، فارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء . . . و يزيد عليها في أن نظمه معجز "[5].

بالرغم من أن كلام أبي بكر الباقلاني يبدو صادرا عن منافحة إيمانية قوامه الذَّود عن صدق الرسالة الربانية ، إلا انه مثل هذه الآراء ظلت تحتاج إلى براهين لغوية و أسلوبية و بيانية ، و هو الجانب الذي يبدو كأنه المجال التطبيقي لدى كل كلام التركيب اللغوي القرآني المعجز الذي يقوى على مضاهاة أساليبالشعر العربي القديم ، و قد بلغ الافتتان بمعاينة هذه المقاربة بين لغة القرآن و لغة الشعر العربي القديم أن أنشأ الباقلاني شبه موازنة بين سورة البقرة و معلقة امرئ القيس ، و قد استهدف كما هو واضح تغليب لغة القرآن على لغة المعلقة الذي يبدو لنا بديهيا ، إلا أن حمية الإسلام جرته إلى تبني هذا المنهج المهتز في نظرنا ، و كيف يعقل أن يوازن هذا بذاك ؟ .

تبدو وجوه الإعجاز مستمرة ، وستظل مشغلة كذلك للدارسين والعلماء بحيث " ... يظل أبدا رحب المدى سخي المورد، كلما حسب جيل انه بلغ منه الغاية ، امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمع ، عاليا يفوت طاقة الدارسين"[6].

إن بيان إعجاز القرآن تجلى في أشكال و صور متعددة من أبرزها الإعجاز البياني ببديع نظمه ،و عجيب تأليفه ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعلَمُ عجز الخلق عنه ، منها ما يرجع إلى الجملة ، و ذلك أن القرآن الكريم خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ، فهو خارج عن أعاريض الشعر ، و أصناف الكلام المسجع "جاء القرآن الكريم أفصح كلاما و أبلغه لفظا و أسلوبا و معنا ، ليجد السبيل إلى امتلاك الوحدة العربية . . . و هو لا ينتهي إلى هذه الوحدة و لا يستولي عليها إلى إذا

المنارة للاستشارات

كان أقوى منها ،فيما هي قوية به ، بحيث يشعر أهلها بالعجز و الضعف والاضطراب، شعورا لا حيلة فيه للخديعة و التلبيس على النفس و التضريب بين الشك و اليقين "[7].

أما القرآن فإنه يقوم في الأساس على فكرة أداء المعنى المراد بصورة جمالية مؤثرة في النفس من خلال العلاقات اللُّغوية على اعتبار أنه يخاطب قلوب الأعراب المتشبثين بعنجهيتهم ، لذلك فان أول تحول طرأ على نفسيتهم هو انتقال عواطفهم من القساوة إلى الليونة ، و قد تمّ ذلك حسب تقدير الدارسين (صوتيًا بين الحروف، ونحويًا بين الكلمات، وصرفيًا باختيار بناء صرفي محدد) وهذه العلاقات الثلاث تسهم في وضعية الدلالة وتأثيرها .

من فصاحة القرآن وضوح بيان معانيه، و اقتصاد مبانيه،و إيجازها، مع اكتفاء غير مخل ولا ممل، تتجلى بلاغته في عجائب تراكيبه، وجمال تعابيره، وبديع عباراته، وروائع الإشارات المتجاوزة لعادة العرب من فصاحتهم وبلاغتهم و هم على ما هم من الفصاحة والبلاغة ، وهم سدنة العربية ، وقد أوتوا من البلاغة والحِكَم ومن كمال العقل ما لم يؤت به غيرهم من الأمم، حتى إنهم تساجلوا في النظم والنثر وتفاخروا وتكاثروا، فما راعهم إلاَّ رسول كريم جاءهم بخلاف هواهم، أتاهم بكتاب عزيز " لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ "[8] أُحكمت آياته ، وفُصلت كلماته ، وبَهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول نظمًا أو نثرًا .

لقد توسموها آيات محكمات فصلت أساليبها على النسق الآخذ بقلوب الناس ، وقد عزز بمكانة القرآن تربيتهم على تبين فنون البلاغات ، فلما وجدوا فيه ما كانت تطلبه نفوسهم، انبروا يمجدونه على تراثهم ، و يفضلونه على آدابهم

المنارة للاستشارات

، تبعا لما صادفوا فيه من الامتياز والتفوق عن كل تراث عرفوه.

آراء في إعجاز القرآن الكريم

كانت روعة القرآن الكريم و سحر بيانه تستولي على القلوب و العقول ، و قد كان الذوق العربي السليم يساعد على إدراك هذه الأساليب القرآنية، فالفطرة الأعرابية كانت تتشوف إلى ذلك الجديد بعد إن تعلمت ما كانت تجود به أسواقهم الشعرية و الأدبية ، تعزز هذا المبدأ بان صارت قداسة القرآن متمكنة متغلغلة في نفوس المسلمين بالنظر إلى ما وجدوا في الآيات من الأحكام و التشريعات والتوجيهات التي أعادت للإنسان صفاء فطرته الإنسانية الأولى التي جبله الله تعالى عليها ، و بقي الأمر كذلك عصر النبوة ، والخلفاء الراشدين ، و فترة من الدولة الأموية،لكن اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب جعل السليقة الصافية تفقد صفاءها، و اللسان الأعرابي الفصيح يتوارى بين الأخلاط الطارئة على العربية .

في هذه البيئة الحضارية المشوبة بالتيارات الثقافية المتباينة – كمدينة البصرة – حيث كانت دورها تموج بالتيارات الفكرية التي أنتجها التمدن العربي الجديد يتقاسمها فقهاء ومحدثون و لغويون ، و أدباء ومتكلمون ، و انبرى كل واحد ينتصر لرأيه و فرقته متعصبا، ونقض آراء مخالفيه مجتهدا في بذل الحجاج.

لم تحض مسالة الإعجاز في بداية الأمر بالعناية و البحث ،و لم يلتفت إليها الناس قبل التشخص المبين، و إنما كانت ترد مثل غيرها من القضايا ذات الصلة بالنبوة و المعجزة ، تناولها المفسرون في سياق التفسير ، مع التركيز على استجلاء مزايا الأسلوب القرآني و بلاغته ذات الخصوصيات المعجزة، و باستثناء النّظّام – و هو أحد شيوخ المعتزلة – ، الذي ذهب إلى أن سبب الإعجاز هو (الصرفة)* [9] ،

المنارة للاستشارات

حتى كأنه بقوله هذا و تخريجه الظاهرة القرآنية على هذا المسمى رمى إلى تفادي مقابلة كلام الله تعالى بكلام البشر ، و قد أفادته فكرة الصرفة في أن ظل ينظر إلى قرآنية القرآن في حدود ماهيتها لا تقارن بغيرها و لا توازن .

و استقام لمسار تكون الصراع اللغوي الحضاري أن ظهرت مطلع القرن الثالث للهجري، كتب في الإعجاز توجهت جهودها المعرفية إلى الاهتمام ببلاغة نظم الأساليب القرآنية إلى جانب التوقعات الفنية المتعلقة بطرق رسم الصور المجازية ، و قد كان الجاحظ أحد أبرز هذا المحك ،فكان أول من أثار ظاهرة الإعجاز في الكتاب الذي أشار إليه الباقلاني في كتابه الموسوم (إعجاز القرآن)،بما يتمتع به من ذوق أدبي رفيع و خبرة بالبلاغة العربية راسخة، وبصر بدقائق الأمور،و بصيرة نافذة مبتكرة ،يلج بها إلى دقائق ولطائف أسرار اللغة العربية ، و قد جمع الجاحظ مع هذه الخصال ثقافة موسوعية كان أبرزها وصل الفطنة اللغوية بفطنة الحياة الأخرى، و خاصة منها البيئة من حيث تلاؤمها مع الفطن البلاغية المتصلة بالتفهم و التأويل والاستنباط و الاستدلال ، و قد انبرى يستمد من كل اختصاص ما يستعين به على تفهم الشعرية العربية ، و جماليات الأدوات اللاحقة بذلك ،وزاد ثري في اللغة والنحو وأشعار العرب ، و قد تسلح الجاحظ متمنهجا بثقافة العصر ، مُعتدا بحرية الرأي المستفادة من مذهبه المعتزلي المؤهل إلى استعمال معيارية عقلية خارقة للمألوف، واعتداد بحرية الرأي و سلاح العقل، و قد لخص كل ذلك في كتابه (نظم القرآن) *، و هو كتاب ذكره في الحيوان ، يقول :" و لي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف فضل الإيجاز و الحذف.و فرق بين الزوائد والفضول والاستعارات ... "[10]، و بذلك يكون

الجاحظ قد خالف شيخه النظام المنكر لنظم القرآن باعتباره معجزة .

المنارة للاستشارات

أما ابن قتيبة * فانه يذهب إلى تمام ما ذهب إليه الجاحظ و يشاركه في القول بالإعجاز البياني ، القائم على حسن التأليف ، و إبراز الجوانب الفنية والبيانية من خلال التحليل للنماذج البلاغية و الأسلوبية المنتقاة خدمة للموضوع .

بحلول القرن الرابع للهجري ،اتسعت دائرة كتب الإعجاز ، و توجهت إلى بيان أساليب العرب في الكلام في شعرهم و خطبهم و إعطاء الاهتمام البالغ ، بدراسة وجوه البلاغة المتميزة بها لغة القرآن ، واستنباط ألوان من المجاز والتشبيه و الاستعارة ، والسجع و التضمين و غير ذلك من أفانين القول ، ثم مقارنتها بالنص القرآني و ألوان بلاغته ، و إبراز مزايا الأسلوب القرآني ،و تفوقها على المألوف من كلام الأعراب ، الذي كان متداولا شائعا ،مركزا على جمالية طريقة نظم ألفاظه ، ومعانيه الجميلة الجليلة الهازة لنفوس المتلقين .

الإعجاز عند الخطابي: اطلع أبو سليمان احمد بن إبراهيم الخطابي(ت 388ه) على ما كتبه من سابقوه من العلماء، و أضاف قائلا :" و إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، و معنى به قائم ، و رباط لهما ناظم ، و إذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف و الفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح و لا أجزل و لا أعذب من ألفاظه ، و لا ترى نظما أحسن تأليفا و اشد تلاؤما و تشاكلا من نظمه ، و أما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، و الترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها و صفاتها" [11] ، و مع أن الخطابي لم يدعم ما ذهب إليه بشواهد من النص القرآني ، فقد أشار إلى مزيتين لم يأت عليهما من سبقه من العلماء ، و هما مزيتا الفخامة و العذوبة ، و من شان الفخامة أن تشعر المتلقي للنص القرآني بالمهابة و الجلال ، و من شان العذوبة الحلاوة التي يجدها ذلك المتلقي و اللذة التي

المنارة للاستشارات

يتحسسها ، يقول : ". . . فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، و أخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة ، و هما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين لان العذوبة نتاج السهولة ، والمتانة في الكلام تعالجان نوعا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ،يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ، ليكون آية بينة لنبيه ، ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه"[12] .

إعجاز القرآن للباقلاني : يعتبر الإمام أبو بكر محمد بن القاسم الباقلاني (ت403ه) من كبار العلماء الذين تجردوا لتفصيل القول في إعجاز القرآن ، مستفيدا من ما كتبه السلف من العلماء ، فألف كتابه (إعجاز القرآن)، و هو احد المصادر التي تناولت إعجاز القرآن بتصور أشمل ، و مقصديات محددة ، فإعجاز القرآن عند الباقلاني هو الصفة المميزة له عن سائر كلام البشر ، مع استجلاء وجوه الإعجاز في التفرد البلاغي و التميز الأسلوبي ، و يستنتج أن القرآن الكريم يفوق النصوص الأدبية جميعا ، و يفوق كل إنتاج أدبي عرفه العرب ، لأنه " ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة ، و الغرابة ، و التصرف البديع ، والمعاني اللطيفة

الفوائد الغزيرة ، و الحكم الكثيرة ، و التناسب في البلاغة ، و التشابه في البراعة ، على هذا الطول ، و على هذا القدر "[13] ، و خلاصة القول أن الباقلاني كان أوسع إدراكا لنظم القرآن ، و الماما ببلاغته و إعجازه ، فهو يؤكد أيضا على حسن التأليف و انتظام الكلام من خلال فصاحة ألفاظه و متانة نظمه و اتساق معانيه .

المنارة للاستشارات

و قد بحث كثيرون في ما اصطلح على تسميته بالنظم أو الإعجاز أو البيان القرآني ، و كلها أسماء لمعنى واحد ، و مقصد واحد ، كلها تبحث في دلائلية الإعجاز القرآني منذ البدايات الأولى للدراسات القرآنية ، أي :"إثبات عجز البشر متفرقين و مجتمعين عن الإتيان بمثله ، و ليس المقصود من إعجاز القرآن هم تعجيز البشر لذات التعجيز أي تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن ، فان ذلك معلوم لدى كل عاقل ، و إنما الغرض هو إظهار أن هذا الكتاب حق ، و أن الرسول الذي جاء به رسول صادق و هكذا سائر معجزات الأنبياء الكرام "(2) [14].

و لما كان موضوع إعجاز القرآن الكريم من الموضوعات الحيوية المتجددة ، فان التأليف فيه قد كثر و تنوع ، و اتسعت مجالاته استجابة لما كان يمثل روح العصر وموجة الثقافة السائدة .

النظم أو الإعجاز عند عبد القاهر الجرجاني :يعتبر أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) من أشهر علماء المسلمين اهتماما بإعجاز القرآن ، من خلال تعميقه البحث في نظرية النظم ، وفي نظرية منهجية ناهضة أساسا على أساليب المجازات البلاغية الثابتة في الأعراف البلاغية العربية ، و يعتبر عبد القاهر الجرجاني من هذه الوجهة مؤسس علم البلاغة على الطريق التي تفصل هذا العلم عن باقي المحاولات و التجارب التي لم تتخلص مما علق بأوّليات التفكير البلاغي العربي، من زوائد و لواحق توقعه ضمن الاهتمام اللغوي العربي المشترك، ويعد كتاباه :دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة من أهم الكتب التي أُلفت في هذا المجال، وقد ألفهما الجرجاني لبيان إعجاز القرآن الكريم وفضله على النصوص الأخرى من شعر ونثر، وله رسالة في إعجاز القرآن بعنوان "الرسالة الشافية في إعجاز القرآن" حققها كل من محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، مع رسالتين للخطابي والرماني تضمنها نفس الكتاب، وهي من أفضل ما كُتِب في

المنارة للاستشارات

الإعجاز نفى فيها الجرجاني القول بالصرفة، مؤيداً كلامه بالأدلة القاطعة، والحجج الدامغة.

مما ذكره الجرجاني أن الألفاظ المفردة بحد ذاتها لا ميزة لواحدة منها على الأخرى، فذلك متاح لأهل اللغة ، و إن المعاني بحد ذاتها لا وجود لها بدون الألفاظ ، لذلك لا ينبغي الحكم على درجة بلاغتها مفردة بل مجتمعة في نظم ، فالنظم هو الذي يحدث الأسلوب المتميز بتخير الألفاظ و ترتيبها على نحو معين ، "إنما المعجز ما علم أنه فوق قوى البشر و قدرتهم إن كان من جنس ما يقع التفاضل فيه من جهة القدر،وفوق علومهم إن كان من قبيل ما يتفاضل الناس فيه بالعلم و الفهم "[15].

يُفهم النظم عند عبد القاهر الجرجاني على انه منهج اقتفاء اثر المعاني في الأساليب التعبيرية وفق الوجه و المنهج و الأدوات الذي تقتضيها معيارية العقل القياسية "وهو تعريف يعكس الصلة المتينة بين المعنى و ترتيبه في النفس . . . والى جانب هذا فان للنظم عند عبد القاهر الجرجاني صلة وثيقة بالنحو و معانيه "[16].

و أفضل الأساليب هو الذي يحقق أفضل نظم للمعنى المراد ، و بذلك يتخير أكثر الألفاظ تعبيرا عن المقصود ووضعها في الترتيب الأكثر لياقة بالمعنى ، إذ "لايستطيع احد أن يعرف إعجاز القرآن حتى يحسن تمييز أنواع النظم المختلفة و يحسن فهمها"[17]،و قد لخص عمار ساسي هذه الوجوه في ما يلي :

الصورة الجميلة التي تنقل المعنى من السذاجة إلى الحلية في التعبير .

الإعجاز في ائتلاف الكلم في نسق من الكلام و نظم من الأسلوب .

المنارة للاستشارات

القرآن أعلى مراتب البلاغة والفصاحة والبيان ،ومنه وإليه فطن عبد القاهر الجرجاني إلى نظريته ،وقد نزل القرآن على أفصح الناس لسانا فتحداهم و أعجزهم ، و لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله،ولا أن يأتوا بسورة أو بآية ،فأبانوا عن عجز واستسلام،

ولكن يبقى السؤال ما الذي أعجزهم فيه ؟ أعن معان دقيقة صحيحة قوية ؟ أم عن ألفاظ محكمة فصيحة؟ أجاب الجرجاني عن سر عجز العرب عن الإتيان بمثله ، وفسّر إعجابهم به فقال:"أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه،وخصائص صادفوها في سياق لفظه،وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها،ومجاري ألفاظها ومواقعها وفي مضرب كل مثل ،مساق كل خبر،وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام،وتذكير وترغيب وترهيب،ومع كل حجة وبرهان،وصفة وتبيان،وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة،وعشرا عشرا،وآية آية،فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو مكانها،ولفظة ينكر شأنها ،ويرى أن هناك أصلح هناك أو أشبه،أو أحرى ،بل وجدوا اتساقا بهر العقول،وأعجز الجمهور،ونظاما والتئاما،وإتقانا وإحكاما،لم يدع في نفس بليغ منهم-ولو حك بيافوخه السماء-موضع طمع ،حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول[18]".

و على الرغم من قيام المغالبة بين قوة بلاغية غير إسلامية ، و أخرى ذائدة بكل قواها عن هذا الدين الجديد ، إلا أن الطرفين، طرف الإعجاز و طرف المناوأة ظلا يتناجزان ويجتهدان في بذل أسباب الإبداع اللغوي ، و قد استفادت الساحة الأدبية من ذلك التنافس أيما فائدة ، وأثمر ذلك المسار عن كثير من الاستلهامات ، و المشاريع الإبداعية المتميزة، فغذت المسار اللغوي العربي إلى وقت بعد ذلك غير قليل .

المنارة للاستشارات

و بالتساند إلى الأسباب التي محصنا فيها القول حول منهج عبد القاهر الجرجاني ، فان هذا العلم يعد وفق تلك الإحالات التراثية من أوائل المفكرين المسلمين الذين أعطوا الأهمية البالغة لدراسة النظم بعمق إلى درجة من العناية بلغت مستوى الاختصاص في مضماره ، ترتب على ذلك المسار الاهتمام بنظرية المعنى في الدراسات الجمالية و الأسلوبية ، فبقي اسم عبد القاهر الجرجاني متقدا ينير أرجاء زمانه ، فائحا بعبق المعرفة القرآنية ، مغطيا على روح العصر التي سادت تلك الفترة من أسباب التحول المعرفي للأمة العربية الإسلامية .

---

[1] ينظر مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ،مكتبة الايمان ، 1997. ط1 ج1ص 276 و ما بعدها .

[2] ينظر ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البيان و التبيين ،تحقيق عبد السلام هارون ،مطبعة الخانجي بالقاهرة ط7 1998. ج1 ص 71.

[3] نور الدين عتر ، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح دمشق 1993.ط1 ص10.

[4] ينظر المبرد أبو العباس ، الكامل في اللغة و الأدب ، مكتبة المعارف بيروت ، ج2 ص 60-61.

[5] أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن،شرح و تع محمد عبد المنعم الخفاجي ،دار الجيل د ت د ط ص55-62.

[6] عائشة عبد الرحمان ، الإعجاز البياني للقرآن ، دار المعارف القاهرة د ت ط3 ص19.

[7] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية دار الكتاب العربي بيروت لبنان 1973 ط9 ص166.

المنارة للاستشارات

[8] سورة فصلت 42.

- القول بالصرفة : إن الله تعالى سلب العرب العلوم التي يحتاجون إليها في معارضة القرآن الكريم و الإتيان بمثله ، و معنى ذلك انهم أوتوا القدرة على المعارضة بما كانوا عليه من بيان و بلاغة و فصاحة ، فهم قادرون على النظم والعبارات، ولكنهم عاجزون عن الاتيان بمثل القرآن بسبب انهم سلبوا العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن في معناه

[9] ينظر عمار ساسي ، الاعجاز البياني في القرآن الكريم ، عالم الكتب الحديث الاردن 2007. ط1 ص29.

* نظم القرآن : من أهم كتب الجاحظ في الإعجاز ، بل عده بعضهم أول كتاب ظهر يتناول فيها صاحبه و جوه الاعجاز فيه وأسرار البلاغة في التعبير بالقياس الى كلام العرب ، ذكره الزمخشري في مقدمة الكشاف ،و الباقلاني في مقدمة إعجاز القرآن و الرافعي في إعجاز القرآن و البلاغة النبوية.

[10] الجاحظ ، الحيوان ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي و وأولاده مصر 1965. ط2 ج3 ص86.

* ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن : تحدث عن البلاغة و علومها ، مع التمثيل بكلام العرب ، لإبراز إعجاز القرآن من خلال المقارنة ، غير ان الثقافة اللغوية لابن قتيبة طغت على استجلاء جماليات التعبير القرآني ، فاقتصر على صور جزئية للنظم القرآني .

[11] أبو سليمان احمد الخطابي ، إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تح محمد خلف الله، دار المعارف القاهرة ط3 ص 27.

[12] المصدر نفسه ص 26.

[13] أبو بكر الباقلاني ، إعجاز القرآن ص87.

[14] محمد علي الصابوني ، التبيان في علوم القرآن ، دار شهاب ص89.90.

المنارة للاستشارات

[15] عبد القاهر الجرجاني ، الرسالة الشافية في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تح محمد خلف الله –محمد زغلول سلام ،دار المعارف مصر د ت ط3ص135.

[16] عمار ساسي ، الإعجاز البياني في القرآن الكريم ، ص 31.

[17] عمار ساسي المدخل إلى النحو و البلاغة في إعجاز القرآن الكريم ، عالم الكتب الحديث الاردن 2007،ط1 ص118.

[18] عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ،تح محمد رشيد رضا ، دار المعرفة بيروت لبنان 1981 د ط ص 32.

المنارة للاستشارات